الحب والكراهية: يومياتنا من غزة

سليم النفار

أيام ثقيلة كغيم شتاء قطبي, أو كوخز الابر في العيون...تمضي الايام ولا يمضي الجنون الذي يحتل واقعنا ومخيلتنا...كيف ارتب لكم وصفه, لست ادري...ولكن ما اعرف هو انني لست بحاجة لبلاغة"فولتير"او فانتازيا "رامبو"التي سعت لتشويه الحواس بما يتلائم مع الواقع المشوه ولست ساعيا لكتابة فصل في الجحيم ...الواقع الغزي يضج بالالم وبالتشويه لروح الانسان وهذا كله صناعة الاحتلال.

في رمضان ينتظر المسلمون في كل الدول العربية اذان المغرب كي ينهون صيامهم...ولكن يسبق الاذان دائما مدفع رمضان يعلن نهاية الصوم, وهذه تقاليد منذ الايام العثمانية, غير ان غزة لم تعرف هذا التقليد في العقود الاخيرة لأسباب متعددة لسنا في صددها الان, ولكن اليوم الاول من العدوان وهو اليوم العاشر للصوم, تنخلع قلوب الغزيين من صدورهم, وتنخلع نوافذ بيوتهم, وجدران منازلهم...وترعد السماء في غير موعدها..انها الطائرات....نعم انها الطائرات , ترج الارض بهوائها الثقيل, بصواريخها, برائحة البارود الذي يزكم الانوف وينشر ملح الموت, معلنا بداية الافطار في ذلك اليوم بالدم الفلسطيني.

اقفز من مكاني, أحاول تبيان الامر, لابرر لاطفالي وزوجتي سر هذا الزلزال الذي اصابنا بغتة, فافتح التلفزيون وسيلتنا في معرفة الاحداث. .ولكن لم تصل اصابعي بعد لادارة الجهاز, حتى باغتنا ارتجاج اضافي اخر ادخل الرعب الى قلوبنا جميعا, والى قلبي انا الذي احاول التماسك, فادركت انها الحرب.

نعم هي الحرب....بالكاد تناولنا فطورنا وتسمرنا امام التلفزيون نراقب ونتتبع ما يحدث لنا في هذا الحيز الجغرافي الضيق.

قتلى وجرحى وبيوت تسقط فوق ساكنيها...وقلوب تنفطر حزنا وكمدا على خسارتها لأبنائها

الصغار وفقدانها لبيوتها التي تلوذ اليها...وابدأ في جولات من التفكير: لماذا هذه الحرب, والى اين تأخذنا, وما هي اهدافها

و...و...؟؟

اسئلة كثيرة في الغالب لا تجد اجوبة لها.

في اليوم الثاني خرجت اتفقد احوال المدينة والاصدقاء, كل شيء كئيب, ومريب فانت لست في مأمن ان تتجول في الشوارع...فالطائرات تصب جحيمها كيفما يحلو لها, لا يهمها الاطفال الذين يلعبون في الحدائق, او الشيوخ الذين يركنون الى وسائدهم في غرفهم الحزينة فكل شيء في المدينة مستهدف, الكل تحت النار...فقد تموت في أي لحظة وعلى أي ناصية دونما استئذان تباغتك القذائف من البر والبحر والجو...يا الله هل تحتاج غزة كل هذا الجحيم؟؟

في اليوم الثالث خرجت الى مكتبي في شارع الوحدة.. قمت ببعض الاعمال على جهاز الكمبيوتر, وارسلت بعض القصائد والمقالات للصحف وخرجت عائدا الى البيت-فانا احاول في هكذا ظروف ان لا اتأخر عن اطفالي-فوجودي بقربهم يخفف من حالة الخوف والارتباك عندهم...ولكن وانا في الشارع انتظر سيارة للذهاب الى البيت, كنت انظر الى الطرق الخالية التي بالكاد تلحظ احد المارين فيها...وتنتظر طويلا كي تعثر على سيارة تقلك الى المكان الذي تريد...الجو كئيب ومريب

ولكن تمكنت من الذهاب الى البيت...وبعد دقائق معدودة كان الجوال خاصتي يرن, وعندما استجبت للمتصل عرفت انه صديقي الذي تركته في المكتب...كان يحاول الاطمئنان عني, فقد ابلغني ان المكان الذي كنت انتظر فيه السيارة قد قصف بصاروخ اف ١٦...

يا الله...يا الله...انه القدر فقط يزيحك عن الموت, ويعطيك فرصة اضافية للحياة, بمحض الصدفة وبالصدفة فقط تمارس الحياة ليوم اضافي اخر..انها غزة التي تعيش هذا الجو الكئيب والمريب.

وهكذا تتوالى الايام, تأخذك الى مفاجئات مؤلمة في كل يوم اضافي من عمر العدوان على هذه المدينة الصغيرة, هذه المدينة التي لا طموح لديها سوى الحياة كبقية خلق الله فهل هذا كثير؟

وبعد اسبوع من العدوان الذي لا يرحم الاطفال والنساء والشيوخ.. نجح العدوان في تشويه حواسنا وقتل البسمة على شفاه اطفالنا, هذه من اهم انجازات الكيان المدجج بالسلاح حتى اسنانه, ففي اليوم السابع للعدوان كنت مساء على باب العمارة التي اسكن فيها, احاول التعرف على الجو العام للناس المرتبكة الحائرة في هذا الخوف الذي يمتد بين ضلوعهم...يتحسسونه ولا يستطيعون القبض عليه, مللت من مراقبة هذا المناخ المكتظ برائحة البارود, وبحسرة الناس على فقدها.. فصعدت الى

البيت, خلعت حذائي وملابسي وارتديت ملابس البيت لاجلس الى جهاز اللاب توب خاصتي اتابع التغطيات الاعلامية والتوقعات الخاصة بمدى عمر العدوان, وجديده اليومي, كل ذلك لم يستغرق عشرة دقائق, وهي بالتأكيد غير كافية لمعرفة ما اسلفت, نعم غير كافية ولكنني توقفت عن كل شيء لان صاروخا مدويا من طائرة الاستطلاع"الزنانة" كان قد هز اركان المكان كله, تركت غرفتي واغلقت جهازي وذهبت الى الغرفة الاخرى حيث بناتي وزوجتي وامي العجوز...كانت ملامح الخوف تأكل تفاصيل واضحة من وجوههم, فحاولت تلطيف الاجواء لديهم واخفف من حدة الخوف, ليس لانني لست خائفا, بل لانني ربما امتلك ادواتي في استيعاب حصة الخوف, وتدليك اعصابي بما يساعدني, على طرد الخوف او السيطرة عليه في الحدود الدنيا في عيون اطفالي, ولكن وانا احاول ذلك فرط كل شيء وتلاشى بفعل صاروخ اخر وهذه المرة من طائرة ال اف ١٦ كان زلزالا حقيقيا, تميد الارض فينا جميعا. .تنخلع النوافذ من اماكنها وتنخلع قلوبنا من الصدور, كان صوت الاطفال والنساء يجرح كبريائي العاجز حتى عن محاولة ان يقول شيئا ما, وكيف اقول شيئا ما وانا مثلهم اخذني الحال ولم استطع غير تحسس اجسادهم خشية ان يكون قد اصابهم شيء ما من الانفجار...ربما استغرق الوقت بضع دقائق لأحاول اعادة بوصلة الهدوء الى دواخلي وكشط القليل من الخوف ,كان ذلك بفعل تسلل البارود الى انوفنا وسقوط الستائر والزجاج...ودخول جارتنا في الشقة المقابلة وهي مختنقة من رائحة البارود ومن الخوف الذي كان ممكنا ان يأخذها الى عالم الاموات...عرفت ساعتها ان البيت المقابل لبيتنا هو الذي وقعت عليه الصواريخ.. فتحول الى كومة من الدمار والشقق المقابلة له على الشارع والسيارات التي في الشارع كل ذلك تحول الى شيء غير ذاته الاصيلة...وبقي الخوف سيد الموقف عند الصغار والكبار...نعم انه الخوف, فمن قال لكم اننا لا نخاف والله نخاف على حياتنا وعلى اولادنا وعلى بيوتنا...ونحب الحياة ولكن الحياة الكريمة التي نريدها, وليست أي حياة كما يريدها لنا الاخرون.

مازالت ابنتي الصغيرة تسألني متى تنتهي الحرب يا أبي, لكي نشتري ملابس العيد؟

اما أنا, فلا اكذب عليها, ولكن احاول تهدئة خوفها مما يحدث حولنا, وأردف قائلا: لا تقلقي يا أبنتي, ستنتهي الحرب وسوف نشتري ملابس العيد, وحتما ستفرحون بالعيد.

هكذا احاول اشاعة مناخ الطمأنينة عند ابنتي وبقية الابناء, ولكن عندما اخلد لنفسي أسأل نفسي: هل حقا ستنتهي هذه المأساة؟

أسئلة مشرعة على كل الاحتمالات, وكل الاجابات ,لان الليل الغزي الذي يلتهب كل يوم, وكل ساعة وكل دقيقة بنار العدوان لا يعطيك فرصة للتأكد من أي شيء...فعشرة ايام أو يزيد مضت وفي كل يوم جديد يأتينا من عوالم تحترف قتل البهجة في عيون الاطفال...وتدمي الكبار قلقا على ابنائهم

وبيوتهم...ومصيرهم المجهول...حيث لا احد في المحيط الجغرافي يكترث لنا...وربما البعض منا قد اعتاد على هذا البازار السياسي, والذي عملته الوحيدة: دم الفلسطيني.

العدوان مازال يفرد مظلته السوداء على بلادنا...وانت لا تستطيع مواكبة الاخبار كلها, فعندما تستمع لإغارة في حي الشجاعية, ؤلا تلبث ان تبدأ موجة الالم تعتريك على الخراب والشهداء الابرياء الذين سقطوا, فيداهمك خبر مثله وربما اكثر قسوة منه في بيت لاهيا, وبيت حانون وخانيونس ورفح...وهكذا على مدار الساعة غزة من شمالها لجنوبها ومن شرقها لغربها تحت ازيز النار وهدير الطائرات...يا الله كم يحتمل هذا الشعب؟

كل سنتين او ثلاثة تجيء موجة قتل وخراب, ناهيك عن التفاصيل السريعة فيما بينهم.. وناهيك عن سوء الوضع الاقتصادي والحصار الذي لا يمكنك من السفر, لقضاء حاجاتك المختلفة, والمصير المجهول لمستقبل اولادك...اولادك الذين يدرسون ويتخرجون ولا توجد سوق تشغيل لهم.. فلا السوق الخاصة تحتمل كل هؤلاء الخريجين الذين سيصبحون عاطلين عن العمل, ونهبا لاخلاقيات وسلوكيات الفراغ, والسوق العامة "أعني الوظيفة الحكومية" فهي متخمة, وعليك ان تسعى بما ليس فيه مسعى...فربما تتعثر بصديق او قريب مسؤول يحل اشكاليتك.. والا فعليك الانتظار.. وهو انتظار عبثي.. قد يشبه الى حد ما انتظار"غودو"في ظل هذه المآسي التي تعيشها.

الشوارع خالية...قليل من المارة المضطرين لقضاء امور ملحة, والمحال مغلقة...فقط بعض الصيدليات وبعض المحال التي تبيع الطعام سواء الخضار او اللحوم او المواد التموينية...غير ذلك, فان المدينة خالية, بالكاد تعثر على سيارة-بعد طول انتظار-لتنتقل من مكان لاخر...الليل سكون فلا حراك ,الشوارع مظلمة وغالبية البيوت كذلك.. وفي البيوت تتجمع الاسر في المكان الاكثر امنا في المنزل حسب تقديراتهم لموقع المنزل...هدوء مريب لا شيء يكسر رتمه سوى اصوات المدافع والطائرات التي تنثر سمومها في الفضاء الازرق, الذي احتل لونه السواد...السواد الذي يتساقط بلا مطر, يلون الجدران والشوارع...وقلوب الناس الخائفة من المجهول

ورغم كل ذلك...فان سماء غزة زرقاء وبحرها ازرق...ونفوس الفلسطينيين, عميقة في حبها للحياة, كعمق هذا الازرق...لذلك سيدافعون عن عمقهم المدجج بإرادة الحياة...ورغم الالم ورغم الخسارة, ورغم الموت, الذي يفرد مظلته السوداء هنا, فان ارادة الحياة ستنتصر, وكما يليق بعشاق هذه الارض.

رغما عن القتل الذي يتسلل الينا بين اللحظة واللحظة, لم يفقد الناس هنا قدرتهم على صناعة الحياة, ولم يسقط الحب في دهاليز الكراهية التي ينشرها العدوان, فكل قذيفة تسقط على المنازل في الشجاعية كانت تعلي وتائر الحقد والكراهية للعدوان, عند جارنا الشاب "محمد" وترفع

منسوب الحب في قلبه الذي ينفطر خوفا على حبيبته خطيبته التي تسكن الحي المستهدف, فلم يركن للهدوء والاستسلام للحظة الفاجعة, ولم يبال بالموت فدائما يتصل, يتقصى اخبارها واخبار الحي, ولم يتسلل الخوف الى عروقه ابدا, فقد اخذته الحمية الى الذهاب تحت وابل الرصاص, ليساعدها واهلها في الخروج سالمين من المنطقة المستهدفة.

يتواصل العدوان, يتواصل قهر المعاني الانسانية النبيلة, ولكن "محمد" كان اقوى من العدوان ووحشيته, عندما انتصر لقلبه..لانسانيته ,في جنح الظلام الذي لا تنيره سوى القذائف, تسلل خلسة عن ابيه, وحيدا في الطريق الطويل يمشي الى قلبه, وفي الطريق نزع وردة بيضاء ناعسة من على كتف جدار الحديقة, دسها في قميصه ومضى الى"هيفاء" قلبه...الى الشجاعية وفي الطريق رأها وقبل ان تلامس يده يدها, تلونت الوردة البيضاء بلون الاقحوان...وتقوس ظهره كقنطرة الغدير.. لكن رائحة الحب كانت اقوى من البارود والرصاص...فغطت سماء الفضاء الرحب هنا.

هكذا يتواصل العدوان ويتواصل سهري الذي لا ينتهي, فمنذ الايام الاولى "للحرب" وحتى الان لا يعرف النوم طريقه لعيوني.. اظل اراقب واتتبع فذات يوم من ايام الاسبوع الثاني بقيت حتى الصباح وانا اقلب موجات المذياع..طبعا المذياع لانه لا كهرباء تسمح بالمتابعة عبر شاشة التلفزيون.. اتابع الاخبار وعيوني شاخصة من غرفتي الى السماء التي لا تكف عن مطرها الناري...القذائف والصواريخ و القنابل المضيئة والدخانية كل ذلك مطر عدواني يلون سماء المدينة بالحزن والكآبة...ويبسط اجنحة الرعب فوق السماوات الواطئة لغرف اطفالنا...في تلك الليلة كان القصف والقتل يمتد من شمال قطاع غزة الى شرقها ومن جنوبها الى غربها في تلك الليلة كان الدم الفلسطيني ينثال على جنبات الطرق وداخل البيوت الامنة في حي الشجاعية الفقير...و في بيت حانون..وكانت هجرة مؤلمة من الشمال والشرق باتجاه وسط المدينة التي لم تعد تتسع...الناس النازحون من بيوتهم يفترشون الارض ويلتحفون السماء..على الارصفة يجلسون هم واطفالهم هائمون على وجوههم لا يعرفون النوم فقد اضطروا لترك بيوتهم التي اكلتها قذ ائف العدوان, فخلفوا كل شيء ورائهم ومنهم من نجا وترك خلفه الاولاد الجرحى والشهداء..هكذا يومياتنا تتواصل من فقد وقهر وحزن.. أحاول تلمس اضاءات ما, اوسع منافذها سيما في عيون اطفالي...الذين كبر قلقهم وهم يرون تواصل العدوان والعيد يقترب فبدأوا يسألونني: متى سنشتري يا ابي ملابس العيد...وهل سيأتي العيد؟

اسئلة كثيرة يطرحها الابناء, الذين يسعون الى لحظات هدوء وفرح كبقية الاطفال في هذا الكون... وانا تحتشد الالام في صدري جراء اسلئتهم التي أؤمن بشرعيتها, وبحقهم في الحياة, ولكن واقع المدينة المنكوبة والمكلومة يجعلني اتروى باختيار اجابات.. مواربة ,ولكن احاول من خلالها ضخ الامل في عروقهم.. نعم يا ابنائي الاعزاء سيأتي العيد وسنشتري الملابس مهما طالت الحرب.. وغدا ستفرحون بيوم جديد وهذا اكيد

لكن ابنتي المشاكسة "لمى" وبحسها العالي.. ادركت انني اسايرهم واحاول تخفيف الالم والخوف الذي يسري في عروقهم...ولم تخجل من مصارحتي-سيما انني علمتهم وعودتهم على ذلك-انت تضحك علينا يا بابا فانا رأيت على التلفزيون بيوت الشجاعية المدمرة والشهداء والناس الذين تشردوا حولنا يسكنون المدارس وينامون على الارصفة...نعم يا بابا رأينا ذلك وهل بعد هذا يكون عيد, واي محال ستفتح في هذا الجو الكئيب واي نفس تستطيع مقاومة الحزن في هذه الاجواء؟؟

نعم لقد ادرك الابناء ان العيد ذهب ادراج الريح, فلا مكان للفرح بالزيارات و الجولات الترفيهية في المدينة التي تقطر دما وحزنا

سبعة وثلاثون يوما كأنها دهر, يمشي السلحفاة.. رائحة الموت تفوح في كل الارض...وركام البيوت المدمرة لوحات سوريالية في متحف النازية المعاصرة ,فهذه امرأة ذاهلة تحدث نفسها عن فقد عزيز ,وتلك شاردة تطارد ظل حبيبها الغارق بدمه, وتسأل نفسها: هل يعود؟؟

واطفال يفتشون بين الركام عن مقتنياتهم الشخصية.. عن العابهم,عن ذكرياتهم تحت الدمار, ولكنهم يبتسمون ربما يهزأون..نعم انهم يهزأون من الدمار...واداروا وجوههم نحو البحر.. يضحكون ويضحكون.. وكان احدهم ينشد شعرا:

هنا غزة

على الايام باقية

وشامخة كموج البحر..

وعاصفة على الربان,

لوطاش تقدير

وساءته بوصلة وخلجان

فلا...لا توهم النفس يا طغيان

فإما ان نكون,

وغير هذا وهمك السكران

هنا غزة

على الايام عنوان

ففيها مر ايام...لكل الغاصبين,

وانت نصيبك الخسران